وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل الأول

أخذت سلمى تجيل بعينيها في أنحاء الغرفة وقد فاض عليهـا الـسكون وران الكرى اللهم إلاّ أنفاس تتردد أو جسم يتقلب خلال كُلل أربعة أسرّة.. وأما السرير الخامس قبالة سلمى فلقد كان خاليا مرتبا وقد عقصت كلته إلى الـوراء بـشريط أزرق، ثم تمدّهما من حين لآخر خلال نافذة مفتوحة على يمين سريرها وأخرى قبالتها، تطل الأولى على منظر رائع.. أفق أزرق باهت يميل إلى الاصفرار اتحد مع البحر حتى لا يكاد الناظر يفرق بينهما، وثم سلسلة من التلال صـاعدة نحـو الجبل، تبدو من بعيد بنفسجية باهته اللون تظللها أشجار الصنوبر فاردة جناحيهـا، وبين تلك التلال وهاد منبسطة، حرث بعضها وبدا ترابها بني اللون ضاربا إلـى الحمرة بشكل هندسي، وبقي البعض الآخر مهملا كفتاة مشعثة الشعر وقد تناثرت فيه شجيرات حائلة اللون..

وأما النافذة الثانية فلقد كانت مغلقة، وزجاجها غبر ترك عليه مطر خفيف نزل منذ عهد قريب يعلن قدوم الخريف. دمعات سالت، وغـسلت التـراب فـي بعـض المواضع..

وكان السرير الخالي يستند نصفه إلى الحائط، ونصفه الآخر إلى النافذة. تغطي كلته نصف المنظر الخارجي، فلا يبدو واضحا في هذا القسم المرتفع عن الأرض، طرف الحرش بأشجار الصفصاف المتعانقة، ونبات الفاصوليا الفرنكي المتـسلقة على صخرة كبيرة نتأت من الحرش، حتى يكاد يغطيها بأمواجه الخضراء القاتمة الغزيرة.. وتندفع هذه الأمواج على جنبات الحرش المرتفعة كأنما تستطلع أخبـار الحرش العظيم.. ولما تصل إلى سيقان أشجار الصفصاف، تلتفت حولهـا وتنمـو وتترعرع ثم تأخذ بأيدي من وقف عاجزا على حافة الحرش، وتكوّن نسيجا كثيفـا من الأوراق والزهور، لا تنفذ العينان إلى ما ورائه..

وعلى رأس الصخرة الكبيرة يقف تمثال للسيد المسيح، لا يبين منه سوى قدميه تقبلهما الزنابق.. وتحتها استلقت أرض رضيّة، رسم على صدرها دوائر ومثلثات،

رتبت فيها زهور متنوعة.. وحدّد طرفها الأمامي بخط منتظم من مثلثات الآجر.. يبدأ من الصخرة، ويلتفت حول الحرش، ويفصله عن البناء طريق محصبة..

كانت هذه الغرفة هي التي نزلت فيها سلمى.. وهذه المناظر هي التي تطالعهـا صباح مساء، ويوما بعد يوم، تتقلب عليها الفصول.. كانت غرفتها إحدى غـرف القسم الجانبية.. والبناء بسيط أرضي وأقل رشاقة من باقي أقسام المصح لأنه معد لنزيلات الدرجة الثالثة.. وجلّ مريضاته لبنانيات تنفق عليهن الحكومة.. ما عـدا فئة قليلة من جنسيات أخرى بينهن سلمى، ينفقن على حسابهن، وتدفع كل مـنهن مائة وخمسين ليرة لبنانية كل شهر..

وكان المصح يتألف من أقسام عديدة، فهناك قسم الرجال، وهو قـسم واسـع مؤلف من طبقتين، وفيه صالة كبيرة للسينما.. وهناك قسم لنزيلات الدرجة الثانية والأولى من المريضات.. وهناك قسم الأطباء والراهبات والممرّضات.. وهنـاك بناء الكنيسة، ولها ساعة كبيرة وناقوس لا يفتأ يرسل أناته المنتظمـة بـين حـين وحين.. وهناك المقبرة..

زقزق عصفور على إفريز النافذة بجوارها ثم قفز إلى سقف كلتها، ولم يلبث أن طار وأحسّت في صدرها ارتقابا لشيء مجهول لا تدري كنهه، ولجّ بها حنين إلى أحمد فرفعت الكلة ونظرت إلى كوميدينتها العامرة بالصور، وتناولـت إحـداها وقبّلتها بصمت والدمع يكاد يطفر من عينيها..

- هل يا ترى نعود ونتلاقى؟..

لقد انزاح عن عينيها تهاويل الخيال، بعد أن أمضت في تلك البقعـة أسـابيع.. فليس هنا جبران كما كانت تظن، ولا الأحراش الكثيفة الحالمة، ولا شـجر الأرز الخالد، ولا دير راهبات هي ضيفة فيه بين ضيوفه القلائل.. وليس أمرها وعكـة بسيطة، وإنما هي في مصح يكاد يكون قرية صغيرة، هي فيه مريضة بين مئات.. وهنا جرح في صدرها.. وهنا وخز أبر وعمليات.. وهنا تأرجح رهيب بين موت أو حياة..

وتذكرت الفتاة التي كانت قبالتها وأسلمت الروح في الليلة الماضية.. لقد كانت شابة وسيمة ذكية في مثل سنها أو تزيد.. وكانـت مخطوبـة وعلـى وشـك أن تعرس.. ولكن الموت أنشب فيها مخالبه بغلظة وحشية..

كانت سلمى حين يزور الفتاة خطيبها تغمض عينيها وتتكلف النوم لتتيح لهمـا الحرية في إبداء عواطفهما، إذ لم يكن يسمح لها بترك فراشها وحرارتها مرتفعة.. ولكن العبارات اللاهثة تبلغها فتزيدها أسى على أساها.. إنها ترى في الفتاة نفسها ومصيرها.. لم يرحم الموت الحب والشباب ولا الوسامة والذكاء بل أسلمها لمقبرة "بحنّس" زهرة جديدة مهتصرة.

ولم يكفِ سلمى التوتر العنيف الذي عانته في الليلة الماضـية، بـل إن حـب الاستطلاع حثها على أن تزيد منه، فذهبت مع من ذهب إلـى المقبـرة لوداعهـا والحمّى تنهشها، وطالعتها الشواهد وجلها لشباب بين الخامسة عـشرة والخامـسة والعشرين.. وأرعبتها الجماجم البشرية المنتشرة على الأرض.. فالقبور لا تستطيع أن تسع العدد الغفير، ولقد أخبرتها إحداهن أنه بالرغم من أن الجثث تغمر بالمواد الكيميائية كي تفنى بسرعة وتسمح بنزل جديد لغيرها، وبـالرغم مـن أن مقبـرة المصح المحددة لا تقبل من الضيوف، إلاّ من لا أهل له، أو له أهل عاجزون عن دفن موتاهم، إلاّ أن هناك أزمة قبور.. والإدارة تتفاوض فـي توسـيع رقعتهـا.. وأطبق على صدر سلمى كآبة خانقة.. إنها لا تريد أن تموت!..

لقد أحسّت حينذاك أنها فقدت شيئا لن يعود.. الشعور الـواهم الجميـل بأنهـا خالدة.. الإحساس بأنها كانت تعيش منذ الأبد.. ولن تموت أبدا.. وكان الشك ينمو يوما بعد يوم في نفسها.. شك قسم لها أن تعانيه أعواما ولا تجد له حلا.. أهنـاك عالم آخر؟..

وبدا لها هذا السؤال الوحيد الذي يستحق اهتمامها، وكل شـيء عـداه أمـر ثانوي..

لا تريد أن تموت.. تريد حياة أبدية.. وذكرت خلود الإنسان في الإنسان.. ولكن كم يبلغ عدد الخالدين؟.. وهالها ندرتهم.. فتاة من الغمار.. واحـدة مـن ملايـين الملايين الذين يموتون.. فلا يدري بهم أحد..

وراحت تعزّي نفسها وتشجعها بعتاب حزين "أتجزعين من الموت؟.. أيرهبك هكذا والسماء تسطع عند الهاجرة؟.. ماذا لو كنت ذرة من الذرات الهائمـة التـي نبذتها الحياة فتلاشت قبل أن تولد، ولم تحسّ في كيانها الشعور! أليس جمـيلا أن تعيشي تجربة الوجود حتى اليوم؟.. فإن قدرت لك الحياة ادخرت ثروة من خبـر، وأعددت نفسا حافزة للبناء تواقة للخير، لا تعرف الزيف ولا تخشى عراك الـدهر في سبيل ما هو حق.. وإن مت فالأمر أهون على الحياة مما تتصورين.. ثمـرة تهوي من شجرة الحياة المثقلة بالأثمار..

وكفكفت عبراتها.. أو ليس قدرها بعد أفضل من قدر هؤلاء الـذين يـصابون بالسرطان أو الجنون أو الشلل مثلا؟.. إن عقلها سيتوهج إلى آخـر لحظـة، بـل سيرهفه المرض ويزيده صفاء. وليس هناك ألم عنيف تحسه، ولا شيء يعيقها عن الحركة.. بل إنها لو نظرت إلى الأمر من وجهة أخرى لاسـتطاعت أن تحـسب نفسها في جامعة.. أو ليس المصح جامعة الحياة التي تفضل كل جامعة؟.. وإلـى هذا فهي تستمتع بمناظر رائعة، وهواء نقي ووسائل تسلية، وسيتاح لها خبرة نفسية هائلة.. حولها مجموعة متناقضة من الناس سفرت عن قناعها الاجتماعي.. ولديها فراغ.. أي عدد هائل من الكتب ستقرأه!..

بهذه النفسية استقبلت سلمى ذلك النهار العصيب حين رنّ جـرس مـا بعـد الراحة واستيقظت الحركة وأخذت الممرضة ليلى، وهي فتاة شقراء كبيـرة الفـم دافقة الأسنان لا تخلو من غباء وسخف حتى جعلتها المريضات ضحكة لهن، تخبّ بمشيتها في الدهليز تحمل الشاي إلى الغرف..

ورشفت سلمى من كوبها وهي تصغي بقلق إلى هتاف الممرضة التي كانـت مهتاجة لقدوم الدكتور خالد الطبيب الأول إلى المصح، فهي تحبه في سرّها بالرغم أن له أبناء أصغرهم في مثل سنها، وتتصرف عند مجيئه برعونة وخفة كبيرة في المصح فتثير ضحك من فيه..

- جاء دورك للعملية!..

وتركت الغرفة مسرعة وبيدها صينية الشاي الفارغة تلـوّح بهـا.. وأخـذت الآنسة هيفا إحدى المريضات في الغرفة، وهي عانس في الأربعين، دمثة الخلـق

ذات عيون سوداء غائرة فياضة بالحنان، ووجه نحيل تدعو لسلمى بنجاح العمليـة والشفاء.. وتبثّ في نفسها روح التفاؤل بقولها أن كل من أقام في سريرها قدّر له الشفاء.. وراحت تعدّهن واحدة بعد الأخرى.. لقد كانت مريضة مزمنـة تعـاني داءها البطيء منذ خمسة عشر عاما، وتذكر تاريخا حافلا لروّاد المصح، وتحدّث بأخبارهم لفتيات الغرفة حتى أحست سلمى وكأن بينها وبينهن ألفة وعشرة طويلة..

وأخذت أليس وهي فتاة "زحلاوية" سمراء جذابة ذات وجـه معبـر وأسـنان منضّدة، وضحكة حلوة وقامة تميل إلى القصر والبدانة، تشتم الإبـر والعمليـات والأطباء، وتنصح سلمى بأن لا تسلم نفسها إلى جزارين، وهـي آخـذة بترتيـب فراشها..

لقد كانت تخشى العملية إلى درجة أنها نزفت رعبا لمجرد أنها حلمت بأنها في غرفة العمليات.. وكانت مشكلة صعبة بالنسبة للأطباء لا تثق بدواء ولا يفيد معها إقناع..

أما جورجيت وهي فتاة مصرية في السادسة عشرة ذات شعر ذهبي منـسدر على كتفيها.. وجبهة عريضة وتقاسيم ناعمة وصوت رقيق تقرأ في رواية فرنسية وتعلق عليها لجارتها وهي فتاة مصرية من أصل بريطاني تدعى يولا وهي شديدة الحيوية، لها فم صغير وأسنان منتظمة وأنف أقنى وشعر كستنائي أجعـد وبـشرة بيضاء. فلم تنتبه جورجيت ورفيقتها لما يدور في الغرفة إلاّ حين دخلت الممرضة ليلى، وأخبرت سلمى أن سيارة المصح تنتظرها لتأخذها إلى غرفة العمليات فـي قسم الرجال. فرفعت جولييت رأسها في دهشة وقلق، ثـم تجعّـدت أسـاريرها بعواطف الإشفاق والجزع دون أن تنبس إلاّ بكلمة "مع السلامة"..

لقد اصطحبتها ليلى وجلست معها في الغرفة الخارجية لغرفة العمليـات، إذ كانت الغرفة مشغولة بمريض يصدر صيحات جزع وألم من حين لآخر.. وكانت سلمى تحاول أن تبدو شجاعة وهي تنتظر دورها، وتنظر بشرود إلى شاب يمسح أرض الغرفة، ويبدو عليه مخايل ذكاء غير عادي.. وأخـذت تفكـر بالمواهـب الضائعة في ذلك المجتمع الذي يكدح فيه الفرد في سبيل اللقمة.. إن ملامحه تؤهله

ليكون في صف القادة لو أتيحت له الفرصة.. ورفع الشاب في تلك اللحظة عينيـه واصطبغ وجهه خجلا حين رأى أمامه فتاة صغيرة أنيقة، وتمتم بأسى ومرارة:

- لقد بلغ بنا الأمر أن نمسح الأرض.. فقالت معزية:

- أذكر أديبا شهيرا لعله "ديكنز" كان في أوائل حياته يمسح الأرض.. إن الروح القوية تشق طريقها مهما كان وعرا..

ولمعت عيناه الواسعتان لحظة ببريق امتنان، وما لبث أن قـال وهـو يمـسح الأرض بسكون:

ينجو فرد ويغرق الباقون.. إن الجهاد الفردي جهاد مرير، والجهاد الجمـاعي هو الطريق الأصلح..

وبدا لسلمى أن هذا الكلام فوق مستوى الفرد العادي فنظرت إليه دهشة.. ثـم أخذت تثرثر مع ليلى لتخفف من وطأة الانتظار حتى جاء دورها..

دخلت سلمى غرفة العمليات وقد عوّلت في ضميرها على الاحتمال مهما كان الألم.. إنها تريد أن تعد نفسها للنضال وتتحمل في سبيله كل أذى.. لقد سمعت عما يلقى المناضلون من عذاب جسدي في سبيل مبدئهم، وهي تريد أن تجرّب قـدرتها على الاحتمال والبطولة.. ولم تكن متبجحة ولا هازلة حين قالت للطبيب بهدوء:

- لا أريد أن آخذ مخدرا..

وضحك الدكتورصابر وهو طبيب هائل الجثة ضحكته الصافية، وأخذ يـدردش بالإفرنسية مع معاونه الذي بدا ضئيلا أمامه وكأنه طفـل، وهمـا يعـدّان أدوات الجراحة، بينما راحت الممرضة تساعد سلمى في نزع ثيابها عن صدرها وترتيبها على الكرسي..

وأردفت سلمى بإصرار وهي تستلقي على طاولة العمليات، والممرضة تغطيها بملاءة بيضاء..

- لا أريد أن تخدروني.. فقال لها الطبيب:

- حسنا.. لن نخدرك.. وسنرى إن كنت قادرة على الاحتمال..

وغاص قلب سلمى خوفا من التجربة، وأخذ الطبيب المعاون يجسّ لها النبض وهو جالس إلى كرسي قربها بينما كانت الممرضة تغطي لها وجهها بفوط بيضاء

بحيث يراه الطبيب المعاون ويمنعها من رؤية يد الجراح وهي تعمل في صدرها.. وهمس لها المعاون:

- إياك أن تتحركي!..

وأحسّت بوخزة عنيفة في الفجوة بين كتفها وصدرها، فتمالكت نفسها وعضّت على شفتها دون أن تنبس بحرف..

ومرت بها فترة ارتقاب مرير، وهي تتخيل المشرط في يد الجراح، وأخذ الطبيب يجسّ موضع العملية دون أن يبدأ العمل..

إنها لا تدري ماذا يفعل.. فهي تشعر بالألم ولكنه ألم محتمل.. وفجأة أحـست بصدرها ينخلع من مكانه فأصدرت صيحة جزعة بالرغم عنها.. وشـدّ المعـاون على يدها:

-لا تخافي! هل تتألمين؟.. وسأله الجراح:

- كيف النبض؟..

- على ما يرام..

ولم تمض دقائق حتى أحست بشيء كالكلابة يضغط موضع الألم وما لبث أن هتف الجراح:

- عال.. انتهى كل شيء..

ولم تصدق سلمى أن قد انتهى كل شيء.. لقد حفزت نفسها لأضعاف أضعاف الألم الذي استشعرته، ونظرت بدهشة إلى المعاون..

- هل أستطيع أن أتحرك الآن؟..

- ويمكنك السير على قدميك..

- إنني لم أتألم كثيرا فلماذا هوّلت المريضات الأمر علي؟..

- إنهن سخيفات.. وخصوصا زميلتك أليس.. شجعيها لعلها تنقذ نفـسها.. إنهـا بحاجة إلى عملية سريعة..

خرجت سلمى من الغرفة كما دخلت برأس مرتفع ونفس واثقة، وقفزت إلـى السيارة فأنبتها الممرضة بقولها:

- أتثبين هكذا بعد العملية بدقائق؟.. أنت مجنونة.. ألا تخشين العيون الحاسدة؟..

- إنني لا أتألم..
- معلوم.. إنك لا تتألمين الآن من أثر البنج..

وشهقت سلمى:

- هل بنّجوني؟..

فضحكت ليلى ضحكتها الرنانة وقد بانت لثتها:

- بنج موضعي.. ماذا كنت تحسبين؟..

* * *